

الكاتب : د/ عمرو الزنط

جريدة : المصرى اليوم
التاريخ : 26 ديسمبر 2009
الصفحة : 13
العدد : 2022

السنة : 6

عذراء ٢٠٠٩ وليدة ٥٢



د. عمرو الزنط
amr@cita.utoronto.ca

الليبرالية (كوسط البلد والزمالك)، فالأحياء الراقية الجديدة، التي تبدو براقة في انغلاقها وعزلتها، تتسم بالتمدن التصورى المزيف، الذى يصاحبه تدين من نفس النوعية.. حتى على المستوى السلوكى السطحي نلاحظ ازدواجية مخيفة في المعايير، فليس في هذه المجتمعات أى «بارات» مثلا، مع أن الكثير من بين سكانها من شاربى الخمر- لكن فقط في الخفاء- فهم يسكنون مجتمعات كتومة مزدوجة السلوك، الصورة فيها لا تشبه الجوهر، مجتمعات تعكس الطريقة التي حصل بها معظمهم على المال، مجتمعات مزيفة في مجملها، تفوح منها روح عدم الجدية أو العمق، أو أى فكر جاد- فالتنجاه (في أغلب الأحيان) على هذا المستوى لا يعتمد عادة على الابتكار أو السببية المنطقية، إنما على التسيوية.

ما هي تداعيات هذا الوضع؟ في السنة الأخيرة فقط، وجدنا حملات حكومية «شعبوية» مخيفة لتكريس صورتها التثقية سطحية: من أول مذبح الخنازير، التي من الواضح الآن أنها لم تسفر عن أى شيء في مواجهة الأنفلونزا التي قاتلوا لنا إنها مميتة، حتى معاوية مقطرى رمضان.

أنا كشخص يحب أن يرى نفسه كرجل علمانى عقلانى، لا يمكن أن يعتقد في ظواهر مثل ظهور العذراء، لأنها لا يبدو أنها تخضع لقوانين سببية، أرى أن في الوقت نفسه أن هذا المنهج نفسه يحتم احترام معتقدات الآخر.. لكن هل هذا منطق نظامنا السياسى خلال أكثر من نصف قرن؟ على العكس، فهو كرس قيم العشوائية في التفكير عن طريق استبدادية الحكم، الذى أداره القدر بأهوائه وقراراته، التي عادة لم تستند لتبرير منطقي مقنع أو أى أدلة عملية ملموسة، واستبدلت الشفافية بالكتمان، واستخدمت هالة من «الميثولوجيا» الغامضة والتقوى المزيفة لتبرير قراراتها التي طالما أنهالت على الناس كالصاعقة.

فلماذا إذن نطالب الناس، بالآذات الفقراء والمنتمين للأقليات منهم، بالتمثل للعقل حينما العالم الواقعي كله في مصر يشير لتراكيب مختلفة، خائفة.. تتنسم، من أعلى إلى أسفل، بمنطق الغموض والكتمان والقوة والشعوذة؟ وإذا كانت هزيمة ١٩٦٧ هي التي أدت لظهور العذراء حينذاك، فما هي متابع الهزيمة اليوم؟ أترك الإجابة للقارئ.

تأتى مناسبة أعياد الميلاد هذا العام في ظل ظروف ربما تكون غير مسبوقة في تاريخ مصر الحديث، نظرا للتوتر الموسمي في العلاقات بين ما كان يسمى بعنصرى الأمة.. أعتقد أنه لا مفر من الاعتراف بذلك، فحتى الحديث عن مسألة ظهور العذراء من عدمه يبدو كافيا الآن لأن يؤدي لحالة توتر اجتماعي، كما اتضح لي من خلال أكثر من حديث مع سكان الأحياء الشعبية المختلطة. فمجرد إعلان بعض الجهات المسيحية عن ظهور سنا مريم شكل سببا كافيا لتفوهات تمتلئ بالازدراء من قبل بعض المسلمين تجاه معتقدات مواطنيهم المسيحيين.. حتى الانتقادات، التي بدت موضوعية في مجملها، من قبل بعض العلمانيين، كانت كافية لإثارة غضب الكثير من المسيحيين، فما هذا الذى حدث بالضبط للنسيج المصرى القومى؟ ما الذى حدث لشعار الهلال والصليب الذى رفعه هذا الشعب في سنة ١٩١٩ والذي أدى، بعد بضع سنوات، لاستقلال مصر الرسمي سنة ١٩٢٢؟

لهذه المسألة تاريخ طويل.. ولأتى لا أدعى الخبرة بتاريخ مصر الحديث، فلأبدأ بأول ظهور «مشهور» للسيدة العذراء في مصر.. حدث ذلك في أعقاب أكبر هزيمة في تاريخ مصر الحديثة، وليس من الصعب لأى شخص اطلاع على وقائع حادثة الظهور تلك اكتشاف أنها كانت إلى حد كبير منظمة من قبل النظام.. فكان الرئيس جمال عبدالناصر نفسه على رأس الذين قالوا إنهم شاهدوا الظاهرة، التي ربما كانت في نظره دليلا على أن مصر «محروسة» فعلا، رغم فشل نظامه الذريع.

وفي الوقت نفسه يمكن ملاحظة أن عبدالناصر ونظامه هما اللذان دمرا الدولة المدنية التعددية الحديثة في مصر.. فنظامه الـ«ثورى»، رغم احتضانه للعذراء «في وقت الزنقه» لم يلب القوانين القائمة منذ عصر الاحتلال العثمانى (على حد علمي) التي تجعل من الصعب بناء أو حتى إصلاح الكنائس مثلا.. ثم ألم يكن عبدالناصر ورفاقه هم الذين طردوا أو «طفشوا» جاليات المدن المصرية، التي كان أغلبها من المسيحيين، والذي كان وجودها ونمط حياتها يشكل عامل توازن اجتماعي، يقابل التقاليد المتصلبة الشائعة في الريف المصرى، الموروثة والمتبلورة على مدى آلاف السنين في سياق محافظ وراكد ورافض للتعددية؟ أليس نظام ٥٢ هو الذى همش وسجن وهجر معظم مفكرى وعلماء العصر الليبرالى أيضا، مما أدى إلى خنق النهضة الفكرية التحررية المصرية- وليدة النصف الأول من القرن العشرين؟ (فأين أمثال طه حسين ولويس عوض ومحفوظ الأن؟).

ثم أليس خليفة عبدالناصر (السادات) هو الذى لعب لعبة ضرب الحرس القديم- المحافظ أصلا في مجمله رغم ارتدائه عباءات اشتراكية وتقدمية سطحية- بالتيار الإسلامى الأوصولى، ففعل المشوار نحو الكارثة؟

وماذا عن العهد الحالى، إلا المزيد من تكريس تلك الروح المحافظة وتداعياتها من ظواهر التدين لسطحي: فالمدن الجديدة، التي شيدت في هذا العهد، بعيدة كل البعد عن روح إحياء مصر

